

الأبعاد الحداثية في كتابات عبد الجليل مرتاض من خلال المستوى الصوتي
**Modernist dimensions in the writings of AbdeljalilMortade through
 the vocal level**

نصيرة شيادي - أستاذة محاضرة أ -
 جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -
 Nacera83@hotmail.fr
 رقم الهاتف : 0776878398

تاريخ القبول: 2018/07/18

تاريخ الاستلام: 2018/05/24

الملخص :

يتناول هذا البحث قضايا الصوتيات العربية بين الأصالة و المعاصرة من خلال كتابات عبد الجليل مرتاض الذي منح للدراسات الصوتية التراثية أبعادا حداثية محاولا تبسيطها و تقريبها من القارئ بطريقة علمية ناجحة . فلقد تبين أنّ هذا الأخير تطرق إلى التراث العربي للوقوف عند القضايا الصوتية محاولا توضيح أصالة الدرس الصوتي العربي من جهة و مُعطيا أبعادا حداثية لعديد القضايا الصوتية كالفونيتيك و الفونولوجيا والوحدة الصوتية و المقطع و التنغيم من جهة أخرى .

الكلمات المفتاحية : الدراسة الصوتية ، البعد الحداثي ، الوحدة الصوتية ، عبد

الجليل مرتاض .

Abstract:

This research deals with the issues of Arabic acoustics between the originality and the contemporary through the writings of Abdeljalil Mortade , who gave the traditional voice studies modern dimensions trying to simplify and rounded from the reader in a scientific way successful. It has been shown that the latter addressed the Arab heritage to stand up to the vocal issues in an attempt to clarify the authenticity of the Arabic audio lesson on the one hand and to give modern dimensions to the various sound issues such as phonetic, phonology, vocal unity, Silable and vocalization .

Keywords :Acoustic study, modern dimension, acoustic unit, Abdeljalil Mortade .

توطئة :

الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض وسَّع بفكره الثاقب دائرة المعارف في البحث العلمي وحثَّ الباحثين العرب على الاستمرار في البحث يقول : " و ليس استمرار البحث العلمي في هذا الحقل اللغوي عجبًا بل العجب أن تتوقف عجلة البحث ، و حركة العمل . و ما استمرار البحث الأكاديمي في هذا التراث اللساني العربي الأصيل إلا دلالة على قوّته و عراقته و أصالته " ¹

لقد عمل الأستاذ عبد الجليل مرتاض على إثراء المكتبة العربية بأبحاثه و دراساته و لقد كانت اللغة العربية هي موضوع دراساته في غالب ما كتب و يكتب ، و مركز اهتمامه لأنّ " تعليم العربية يجب أن يكون همّنا الأول لا يشغلنا عنه شاغل و لا يلفتنا عنه لافت ، و هو فرض لا يسوغ لنا أن نبحث له عن تعليل " ²

و لذا فهو يسعى من خلال ذلك إلى الاستفادة من مناهج البحث اللغوي الحديثة و هذا مظهر من مظاهر التحديث لديه ، إنه يُحاول في كلّ ما درس في أبحاثه اللغوية أن يُجدّد فيها قصد الوصول إلى تحقيق نتائج خدمة للدرس اللغوي . فهو من الدارسين المعتدلين في موقفه من الحدائث و القِدم أو المعاصرة و الأصالة فلم يكن يُغلب جانباً على آخر بل كان باحثاً علمياً محترفاً بامتياز . فهو موضوعي في طرحه و هذه الموضوعية الحقّة جعلته لا يقبل إلاّ بسُلطة العلم إذ انقطع له بجديّة قلّ مثيلها ، و بروح حرّة لا تنحاز إلاّ إلى الحقيقة . فكان يُخضع كلّ الأقوال للنقد و التمحيص مهما كان مصدرها عند القدماء أو عند المحدثين ، عند العرب أو عند الغربيين . ولا يقبل الأفكار إلاّ بالأدلة المقنعة و لا أحد يُنكر قيمة الأعمال التي قدّمها للدرس اللغوي فقد دافع بكلّ موضوعيّة عن أصالة البحث اللغوي العربي ، و أبدى كفاءة عالية في عرض الحقائق التاريخية ، و طرق جميع العلوم المتعلقة باللغة العربية و مستوياتها مستنطقاً كلّ النصوص القديمة والحديثة ولا يقدر على هذا إلاّ من كان واسع الاطلاع فبالإضافة إلى اطلاعه على المصادر و المراجع العربية

اطَّلَع كذلك على مصادر و مراجع باللغات الأجنبية رغبة في الوصول إلى الحقائق العلمية ذلك ما يتبيّن من خلال القراءة الوصفية لبعض مؤلفاته (في رحاب اللغة العربية اللغة و التواصل ، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ، العربية بين الطّبع و التّطبيع ، مباحث لغوية في ضوء الفكر اللساني الحديث)

و بالتالي يحقّ لنا أن نصفه بثعالبي العصر فلقد وقف عند المستوى الصوتي مطوّلاً و أثبتت جهوده في هذا المستوى حقائق ، و أزال شوائب ، و صحّحت أخطاء حيث استلهم موضوعاته الصّوتية من التراث اللغوي العربي و لكنّه نظر إليها من منظار حدائبيّ مُحاولاً أن يُسقطَ عليها ما توصلَ إليه البحث الصوتي من نتائج مستفيداً من نتائج البحث الصوتي الحديث .

1. رأي العلامة عبد الجليل مرتاض في نشأة الدرس الصّوتي

اهتمّ العلماء العرب بدراسة أصوات اللغة العربية اهتماماً كبيراً ، و اتّسمت هذه الدراسة بالدقّة و التميّز على الرغم من اعتمادها على الملاحظة الذاتية . فلقد حرصوا على سلامة لغة القرآن الكريم و نقائها ، وبخاصّة بعد انتشار الإسلام في بقاع الأرض شرقاً و غرباً ، فتأثرت أسماع العرب بلغات هؤلاء الأقوام و أصواتها فخشي العلماء الأجلّاء من أن تنحرف أصوات هذه اللغة الشريفة ، لغة القرآن الكريم بتأثرها بأصوات تلك اللغات .^{3*} و تُجمَع أغلب الدراسات و إن لم نُقل كلّها أنّ نُهوض العلماء لدراسة أصوات اللغة العربية بدأ منذ القرن الثاني الهجري على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) الذي أولى اهتماماً كبيراً بدراسة أصوات العربية في معجمه العين ، ثم تبعه تلميذه سيبويه (ت 180 هـ) في مؤلّفه الكتاب الذي تضمّن جهود صوتية حظيت بإعجاب العلماء عرباً و غربيين لدقّة الوصف و شمولها و اتّساعها لتتسع الدراسة أكثر على يد ابن جني (392 هـ) في كتابيه الخصائص و سر صناعة الإعراب .⁴

و لكنّ الباحث عبد الجليل مرتاض و بطريقة منطقيّة مستندة إلى شواهد و أدلّة دامغة يصلّ إلى تخرّيج عليّ سليم مفاده أنّ تاريخ الدراسات الصوتية لدى العرب كامنٌ

عند القراءة و علماء القراءات ، يقول : " إذا أردت أن تُنقَبَ عنه . أي تاريخ الدراسات الصوتية عند العرب . فإنك لست واجدا جذوره الممتدة لدن غير القراء والقراءات القرآنية برمتها " ⁵

و يستند العلامة في حُكمه على ما نشره الإمام الداني (ت 444هـ) في كتابه التيسير يقول هذا الأخير "والحقّ أنّ تدوين علم القرآن أفاد المسلمين فائدة لم تحظَ بها أمة سواهم و ذلك أنّ البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتيسير تلاوة كلمات القرآن على أفصح وجه و أبينه كان من أبلغ العوامل في عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى و أسرارها " ⁶

و لم يكتفِ الباحث عبد الجليل مرتاض بقول الداني ، بل دفعه حسّه العملي ورغبته في الوصول إلى حقائق علمية رصينة إلى التنقيب مجدداً و التعليل ليصل إلى تأريخ علمي صحيح لنشأة الدراسات الصوتية يقول " نعم فكلّ من يصدى للنظر في تاريخ اللغة العربية و درّس المسائل التي تتناولها كتب النحويين أو البحث في تنوع اللغات و اختلافها بحسب الأقطار و الأمصار ينبغي له أن يتتبع علم القراءة و التجويد ، و إذا كانت الدراسة الصوتية مرتبطة بظهور القراءات و علم التجويد فليس بدعا أن تُردّ بدايتها إلى مشارف نهاية القرن الأول الهجري أو قبله بقليل باعتبار أنّ عبد الله بن كثير التابعي توفي سنة (124هـ) و أنّ ابن عامر توفي (118هـ) و أنّ أبا عمرو عاصر الحجاج توفي (154هـ) بينما توفي عاصم الكوفي (127هـ) . و هؤلاء القراء ترددت بينهم الأضرب الصوتية المختلفة في اللغة العربية ، حتى و إن لم يعرفوها كلية باصطلاحاتها التي أسّس معظمها الخليل بن أحمد و زاد ما تقدّمه منها بسطا و توضيحا ذلك أنّ مطلقا بسيطا على تاريخ علم القراءة لا يشك أدنى شك بأنّ القراء المتقدمين كانوا لا يعرفون مصطلحات صوتية مثل : الإدغام و الإظهار والمد و القصر و الإشباع و التحقيق و التخفيف و الفتح و الإمالة و الوقف على هاء التأنيث ، و الوقف على أواخر الكلم ، و الترقيق ، و التغليظ ... " ⁷

ولأنّ الباحث عبد الجليل مرتاض نظر لمسألة التأصيل لنشأة الدراسات الصوتية نظرة متفحّصة نظرة المتمرّس الذي لا يقبل الأفكار إلّا بالبرهنة عليها يُضيفُ قائلاً: " و إلاّ فهل من الصّدْف الغريبة أنّ قارئاً يتجرّأ على قراءة القرآن لو لم يكن لقراءته سند لسانيّ عام صحيح ؟ فهل كان من الصّدْف أن يصل قارئٌ كابن كثير هاء الكناية (الضمير المتصل) عن الواحد المذكور إذا ما انضمت و سُنَّ ما قبلها بواو على نحو(عقلوهو) (شروهو) (فاجتباهو) ، (مهو) ، (عنهو) أما إذا سبقت هاء الكناية بكسرة فكان يُشبعها ياء في مثل (لأبيهي)

(تؤويهي) ، (أليهي) . أما إذا سبق أو لحق هذه الهاء سكون مثل : (يعلمه الله) و)

فأراه الآية) فإنه كان يصلها .⁸

ثم يستطرّد العلامة في طرح الأسئلة مُجيباً عنها ببراهين علمية لا تدع مجالاً للشك أو التخمين فيما يخصّ قضية نشأة الدرس الصوتي فيقول: " و هل كان من الهذر أن يقرأ أبو عمرو خارج لساني إذا ما وجدناه يُدغمُ المثلين بحيث إذا كانا من كلمتين فإنه كان يدغم الأول في الثاني منهما سواء سكن ما قبله أم تحرك مثل : (فيه هدى) (إنه هو) ، (لا أبح حتى) ، (يشفع عنده) ، (إذا قيل لهم) ، (يستحيون نساءكم) في قوله تعالى : ﴿ قَلَّا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ ﴾⁹ لكون النون جاءت ساكنة قبل المثل الأول (الكاف) لكون النون تخفى كما يقولون وكذلك إذا كان الصوت الأول من المثلين مشدداً أو منوّناً أو كان تاء الخطاب أو المتكلم... فهل لنا أن نرتاب خيالاً في معرفة أبي عمرو اللسانية و ضلّاعته في علوم اللسان العربي ، و هو الأعلام بمذاهب العرب و هو الذي كان يقول عن نفسه: "لولا أن ليس لي أن أقرأ إلا بما قد قرئ لقراءت بكذا و ذكر حروفا ؟"¹⁰

و يُضيفُ العلامة قائلاً: " أليس هو المجيب و قد سُئِلَ : أخبرني عما وضعت ممّا

سمّيته عربية ، أيدخل فيها كلام العرب كلّّه ؟ فقال : لا . فقلت (السائل) : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب و هم حجّة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، و أسعي ما خالفني لغات "¹¹

بعد أن سرد لنا العلامة عبد الجليل أدلة كافية لا تدع مجالاً للشكّ حول نشأة الدراسات الصوتية يُحيلنا إلى الخليل الذي قال العلامة فيه أنه عاصر هؤلاء القراء ، و بلغ شأوا بعيدا في تعميق الدراسات الصوتية.¹²

2. الأبعاد الحداثيّة للفونيتيك و الفونولوجيا عند عبد الجليل مرتاض

من المعلوم أنّ مستوى الدرس الصوتي عند العلماء العرب جاء متأخرا عن بقية المستويات اللغوية الأخرى (المستوى الصرفي و المستوى التركيبي) ، و أنه في ضوء المنهج الوصفي البنيوي يجب أن تتقدّم الدراسة الصوتية لتكون مهيّدة و توطئة للمستويات الأعلى (الأبنية و التراكيب) ، لكن الأمر يختلف عند مناهج لغوية أخرى حديثة كالمناهج التوليدي التحويلي الذي يتّخذ من المستوى التركيبي المستوى الأساسي الذي ينطلق منه التحليل اللغوي ، و يأتي المستوى الصوتي و الصرفي و الدلالي تالية عليه باعتبارها مستويات تفسيرية فحسب.¹³

و الحق إنّ سيويه قد جاء كتابه (الكتاب) متسلّطا في المقام الأول على الجانب النحوي فيما يطلق عليه التركيب الأساسي في اللغة ، و جاءت الدراسة الصوتية عنده في باب سماه (الإدغام) خصّصه في أحوال إدغام الصيغ العربية ، و ما يجوز فيها الإدغام و ما لا يجوز ، و جعل بدايته تقديمًا بدراسة الأصوات العربية دراسة وصفية محضّة (فونيتيكية) ألقى الضوء فيها على المخارج و الصفات بأنواعها ، ثم نجده و هو يتبعه بدراسة أحوال الإدغام و ما يحدث للصيغ العربية ، و أبنيتها من تغييرات تحت هذا العنوان الإدغام.¹⁴

إذا عدنا إلى ما أدلى به العلامة عبد الجليل مرتاض فيما يخصّ الفونيتيك و الفونولوجيا اللذين نظر إليهما نظرة حداثيّة لا تخلو من جانب الإبداع الكامن في اعتماد المستوى الصوتي و بالضبط المستوى الفونولوجي السبيل الأفضل للتعامل مع النصّ الشفوي الذي لا نملك صورته ، يقول : " إنه عندما نُواجه بمدوّنة شفوية لا نملك صورتها الصوتية السمعية فعلى أيّ شيء نرتكز و نُعوّل ؟ على الصوتيات Phonétique أم على

الفونولوجيا أو علم وظائف الأصوات ؟ إنّ الصوتيات أو الفونيتيكا تُعنى بدراسة الجانِب المادي لأصوات اللغة كما هي ممثلة أو مبدوءة حسب تنوعها في واقع الكلام .¹⁵ " فالفونيتيك " تدرس الجانِب الفيزيائي و الجانِب السيكلولوجي للكلام ، سمعي ، تصويطي Phonation نطق...الخ و أحيانا بمساعدة الأجهزة لأنّ الصوتيات لا تأخذ بعين الاعتبار المدلول . إنها لا تهتمّ إلاّ بالعناصر الصوتية للكلام و يمكن لنا صوتيا أن ندرس لغة لا نفهمها .¹⁶ "

أمّا الفونولوجيا أو علم وظائف الأصوات فيقول العلامة مرتاض : " لا يمكنها إلا أن تحفل بالمدلول ، فهي تدرس الدال من خلال علاقته بالمدلول إنها تدرس الوظيفة للأصوات في اللغة . إنّ الفونولوجيا في العدد الوافر من الأصوات المحققة Actualises في أفعال الكلام في لغة واحدة تجري عملية انتقاء ، ولا تحتفظ إلاّ بالسّمات الأساسية المتعلقة بالوظيفة للغة . لتكن الكلمة Papa فبالنسبة للفونيتيكي أنّ الصوتين [P] مختلفان فضلا عن ذلك أنّ شخصين مختلفين يُمكن أن يلفظا نفس الصوت [P] البدئي Initial بكيفية مختلفة هذه الفوارق لا تهتمّ الفونولوجي الذي يحتفظ فقط ب [P] من Papa البدئي أو البيصائتي Intervocalique و الذي يمكن أن يُضاد مثلا [B] المجهور فهذا التمييز بالنسبة للفونولوجي ، من هنا Papa يُعارض Baba لأنّ القيمة الأساسية لأصوات اللغة في الفونولوجيا تكمن في قيمة تعارضها¹⁷ و باختصار:¹⁸

الفونولوجيا ¹⁹	الفونيتيكا ¹⁹
. دراسة أصوات اللغة بالمناهج اللسانية .	. دراسة أصوات اللغة حسب مناهج العلوم الطبيعية . دراسة الأصوات دون

<p>. دراسة الأصوات من وجهة نظر الوظيفة التي تضطلع بها هذه الأصوات في لغة محددة . . إبراز السمات الصوتية ذات القيمة المتميزة Distinctive</p>	<p>الأخذ بعين الاعتبار انتماؤها إلى لغة . . تسجيل كل الفوارق الصوتية الممكن إدراكها .</p>
---	---

إنّ إقرار العلامة مرتاض أنّ الفونولوجيا تهدف إلى إبراز السمات الصوتية ذات القيمة المتميزة هذا التمايز بين الأصوات الذي يعتبر ناحية هامة في تعريف الصوتية عند المحدثين سواء منهم من قال: بأنّ الصوتية صوت متمايز عن غيره من الأصوات أو من قال أنّ الدراسات الصوتية ينبغي أن تقوم على أساس من السمات الصوتية المتميزة ، وحرصوا هذه السمات فيما يُقارب من عشر . أو من قال : أنّ الصوتية لها شقان لفظي وسمعي . إذ أكد كلّ من هؤلاء أنّ التمايز والاختلاف شرط أساسي لإثبات استقلال صوت عن آخر وإثبات أنّ كلّاً من الصوتين صوتية قائمة بذاتها مستقلة عمّا عداها، و سواء قال الأوربيون اليوم بمبدأ التضاد Opposition أو مبدأ المقابلة Contraste فكلا اللفظين يتقابلا مع ما يعرف بالتمايز Distinction بين الأصوات بعضها ببعض .²⁰

إنّ البعد الحدائي الواسع للفونولوجيا دفع بالعالم عبد الجليل مرتاض للوقوف مطوّلاً عند البعد الحدائي للوحدة الصوتية أو ما يُعرف في الدرس الصوتي الحديث بالفونيم ، و التنوع الصوتي أو ما يُعرف بالألفون مُفترقا بين الحرف و الصوت شارحا في ظلّ الصوتيات الحديثة ، مُعتمدا في ذلك كلّه على الأدلة و الشواهد بما لا يدع مجالا للسؤال أو عدم الفهم .

3. البعد الحدائي للوحدة الصوتية Phonème* عند عبد الجليل مرتاض

إنّ العلماء العرب لم يكونوا يُفترقون بين الحروف و الأصوات و التنوعات الصوتية كما هو الحال في الدراسات الصوتية الحديثة ، فقد كان مصطلح (حرف) عندهم يشتمل على مفهوم الوحدة الصوتية Phonème ومفهوم التنوع الصوتي أي الألفون Allophone* و مصطلح الصوت Sound .

لقد جعل سيبويه التنوّعات الصوتية للفونيم الواحد جعلها فونيمًا فيما سمّاها الحرف ، و جعلها أوصافًا تعزو الأصوات و هي ما سماها : الإدغام و الإقلاب و الإخفاء و نحوها .²¹

فسيبويه اتّجه عند النظر في استنباط الحروف من الأصوات اتّجاهها عكس ما يراه المحدثون . فالدراسات الصوتية الحديثة تبدأ بالأصوات و تنتهي بالحروف حيث ينظم الباحث ما لديه من أصوات جرت ملاحظتها و وصفها فيبوّيها إلى مجموعات يسمي كل مجموعة منها حرفًا و ذلك كأن يجمع الأصوات المختلفة الدالة على النون مع اختلاف المخارج بين هذه الأصوات فيجعلها تحت عنوان واحد هو : حرف النون .²²

ولكنّ سيبويه حين قصد لتحليل الأصوات كان بين يديه نظام كامل للحروف و مشهور للغة العربية وكانت الحروف التي يشتمل عليها هذا النظام قد جرى تطويعها للكتابة منذ زمن طويل فكان لكلّ حرف منها رمز كتابيّ يدلّ على الحرف في عمومه دون النظر إلى ما يندرج تحته من أصوات فارتضى سيبويه هذا النظام الصوتي المشهور و اتّخذ نقطة ابتداء في دراسته للأصوات العربية . و من هنا رأينا الأصوات العربية التي تحت كلّ حرف من هذا النظام لا تعدو أن تكون صفة لهذا الحرف كأن تكون إدغامًا له أو إقلابًا أو إخفاءً أو إمالةً و هكذا جاء منهج سيبويه في دراسة الأصوات من حيث اتّجاه الحركة عكس المنهج الحديث²³

وفي هذا الإطار الذي قام به سيبويه فإنه يجمع لنا الحروف العربية في تسعة و عشرين حرفًا²⁴ يُنبعها بمجموعات من الحروف العربية التي تستحسن في قراءة القرآن الكريم و الشعر و نحوه يجمّلها في ستة حروف فيصّل بذلك مجموع الحروف العربية إلى خمسة و ثلاثين حرفًا . و هذه الحروف المستحسنة ما هي إلاّ تنوّعات صوتية (ألفونات) و ليست وحدة صوتية في نظام اللغة ، ثم يضيف إليها ثمانية حروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته ولا تستحسن في قراءة القرآن الكريم ولا في الشعر و بذلك يكون إجمالي حروف العربية اثنين و أربعين حرفًا .

و هنا يُدلي العلامة عبد الجليل مرتاض بدلوه إذ يُوجّه أبصارنا إلى ما يُعرف حاليًا بالوحدة الصوتية أو الفونيم وتنوعها الصوتي أي الألفون . فينصّ على أنّ " الرمز الشفويّ الذي تقوم عليه اللغة الخطّية شيء وأنّ الفونيمة أو الوحدة الصوتية التي تقوم عليها اللغة الشفوية شيء ثانٍ . فالعربية الخطّية المرسومة بثمانية أو تسعة وعشرين رمزا شفويا هي العربية المنطوقة الممثلة بوحدات صوتية تفوق هذه الرموز الشفوية بكمية صوتية أو فونولوجية غير محصورة حصرا علميًا دقيقا مؤسسًا على ما اعتري لغتنا الفصحى من تباينات فونولوجية في النطق و الأداء ، بمعنى أنّ الرمز الشفويّ أو الحرف في المرسلّة المكتوبة لا يمكنه أن يشتمل على أكثر من وحدة صوتية خلافا للمدونة الشفوية التي تحتوي في الغالب فونيماتهما على مزيد من معلومة ."²⁵

و ليقربنا الباحث الموسوعيّ أكثر لمعنى الوحدة الصّوتية أو الفونيم في ظلّ الدراسات الصوتية الحديثة يعود بنا كعادته للتراث العربيّ الأصيل ، فيعالج لنا القضية معالجة علميّة منطقيّة ثم يضيفي عليها الأبعاد الحدائثية يقول إنّ ابن دريد (ت 321هـ) بعد أن يذكر لنا بأنّ الحروف التي استعملتها العرب في كلامها في الأسماء والأفعال والحركات والأصوات تسعة وعشرون حرفا ينتقل إلى القول بأنّ العرب إذا اضطروا حوّلوا بعض الحروف إلى ما يُقارها مخرجا و يأتي بأمثلة لهجية شفوية . و من هذه الأمثلة أنّ أهل اليمن يقولون : كمل في جمل حيث يكون أداؤهم الصوتي بين الجيم و الكاف أي صوت ثالث لا هو بالجيم و لا هو بالكاف . و أمّا بنو تميم فإنهم يُلحقون القاف بالكاف فتغلظ جدا في هذا حيث يقولون : الكوم في القوم فيكون أداؤهم الصوتي للقاف الخالصة بين الكاف و القاف و أنشد :

ولا أكوّل لكدر الكوم كد نضجت ولا أكوّل لباب الدار مكفول²⁶ أي :

لا أقول لقدر القوم قد نضجت ولا أقول لباب الدار مقفول .

غير أنّ الشواهد اللهجية الشفوية التي سجلها ابن دريد هنا لا تعمل على تغيير المدلول على الرغم من تغير أحد الأصوات في الدال المعني . و إذا فليس هذا النوع من

التغيير ممّا يدخل فيما يسمّى وظيفة التمايز السيمانطريقي للأصوات . سبق و أن اعتبر العالم مرتاض التمايز صفة فارقة بين الفونيتيك و الفونولوجيا .²⁷ و حتى صوت التمايز ليس له معنى مستقل في حدّ ذاته بل مرتبط بما يسبقه أو يعقبه من أصوات أخرى . و كلّ تباين في الصوت من حيث الشكل العام لا يؤدي إلى اختلاف في الدلالة يُقبه فونيمة مهما كان تعدّد هذا التباين الصوتي مثل : صراط ، سراط ، زراط / صقر ، سقر ، زقر .²⁸

فالعلامة مرتاض يُتبرّز هنا قضية صوتية ذات بعد لساني دقيق وهو ارتباط الوحدة الصوتية بالدلالة ، يقول :

"ويجب ألا نخلط بين الوحدة الصوتية Phonème و الصوت . فالوحدة الصوتية صوت مبین مميّز و البحث عن الإبانة الصوتية ينقلنا مباشرة من نطاق الصوت الصّرف إلى نطاق الدلالة " ²⁹

و هنا يعتبر الباحث مرتاض الوحدة الصوتية ذات ارتباط وثيق بالفونولوجيا منها بالفونيتيكا فيحصر الوظائف التي تشتمل عليها الوحدة الصوتية في ثلاث أنواع هي :³⁰

أ. الوظيفة النبرية : و تؤدي بالنبرات الصوتية .

ب. الوظيفة التحديدية Fonction démarcative : و هذه تسمح بتقطيع الجملة إلى وحدات تعمل على إبراز حدود الكلمات حيث تكون النبرة عادية .

ج . الوظيفة التمييزية : و يعتبرها العلامة مرتاض أهمّ الأنواع الثلاثة لأنّ هذه الوظيفة ثابتة في كلّ لغات التخاطب البشرية و ترتبط بمفهوم التبادل بين الأصوات . لكن صوتين لغويين لا يشكلان وحدتين صوتيتين إلّا إذا كان تبديل أحدهما بالآخر ينجم عنه خلاف في الدلالة مثل : (Bus) حافلة و (Pus) قيح أو صديد أو بين الدرب و الضرب ، سام و صام ، جبر و صبر في العربية .

إنّ هذه النظرة الحدائية للوحدة الصوتية من لدن العلامة مرتاض تتماشى و معطيات الدرس الصوتي الحديث فهم بدورهم ربطوا الفونيمات أو الوحدات الصوتية بالدلالة (الوظائف التمييزية) . وقد عرّفت مدرسة لئنجراد الفونيمات بأنها : " النماذج

الصوتية التي لها القدرة على تمييز الكلمة و أشكالها " ³¹ و يعرفها ترنكا بأنها " كل صوت قادر على إيجاد تغيير دلالي " ³²

فالفونيمات من وجهة نظر المحدثين " أصغر وحدة صوتية عن طريقها يمكن التفريق بين المعاني " ³³

إنّ مظهر التكامل واضح بين نظرة المحدثين للوحدة الصوتية (الفونيم) و بين نظرة العالم مرتاض في اعتبارهم إياها أساسا في بناء الكلمة و ينجم عن تغيير أحدها تغيير في المعنى .

4. المقطع الصوتي عند عبد الجليل مرتاض من البعد التراثي إلى البعد الحدائي

إنّ فكرة تجزئة الكلام إلى مقاطع فكرة أصيلة عند العرب و إنّ منبعها يمتدّ . فيما نخاله . إلى تلك المرحلة الطويلة التي عاشت فيها العربية لغة شفوية تعتمد في نقل صنائع أهلها و مُنجزاتهم على المشافهة و السّماع و قد ساهمت هذه الطّبيعة في تنقية أصوات العربية من كلّ ما يحدُّ من انسيابها أو يقفُّ دون توارِد مقاطعها في إيقاعٍ موسيقيّ جَدّاب ³⁴

و بالتالي، فقد تردّد مصطلح المقطع بين ثنايا مؤلفات علماء العربية القدماء، يقول العلامة عبد الجليل: "علماء العربية حصروا مقاطعها في ستة . فنحن إذا رمزنا لصامتها أو ساكنها أو صحيحها بالرمز (ح) ولصائتها القصير أو حركتها القصيرة بالرمز (حق) و لحرف اللين بالرمز (ل) فيكون تركيبها: حق + ح ، حق + ح ، ح + حق + ح ، ح + ل ، ح + ل + ح + ح + حق + ح . فالمقطعان (حق + ح و ح + حق) قصيران و المقطعان (ح + حق + ح و ح + ل) متوسطان و المقطعان (ح + ل + ح + ح و ح + حق + ح) طويلان " ³⁵

إنّ القدماء حصروا مقاطع العربية في ستة بعكس ما هو متعارف عليه في الدراسات الصوتية الحديثة إذ تُجمع هذه الأخيرة أنّ أنواع النسيج في المقاطع العربية خمسة مستثنية المقطع الأول. ³⁶

و هنا يُفسَّرُ لنا العلامة مرتاض تفسيراً علمياً رصينا سبب إقصاء المحدثين للنوع الأول من المقاطع يقول: "و ممّا توجّه إليه المحدثون أنّ المقطع (حق + ح) ليس أكثر من مقطع تشكيلي بمعنى آخر لا وجود له في الدراسة الصوتية الواقعية باعتبار أنّ أي مقطع عربي من الناحية الصوتية ينبغي أن يبدأ بصوت صحيح. و من هنا فيما يبدو لي أنّ علماء العربية اتّفقوا على أنّ أصواتها ثمانية و عشرون أو تسعة و عشرون فقط بدل اثنين و ثلاثين وهو ما نراه و نميلُ إليه بقوة إذ من غير المؤهل لدارس أن يُهمَل ثلاث أصوات ذات أهمية بمكان، و الاعتقاد السائد بهذا الإهمال يتحمّل خطأه المحدثون أكثر من القدماء بدعوى أنّ الرسم السّامي كان خاليا من الصوائت الطويلة ومنها العربية القديمة إلى أن ضرب التصحيف و التحريف في الكتابة العربية بأطنابه ممّا اضطرّ العلماء إثبات هذه الصوائت الطويلة رسماً مثلما تُحقّقُ نطقاً أسوة باللغات الهندية الأوروبية و كان ذلك مخرجاً رائعا للغة العربية و هو الأصحّ"³⁷

5. التّنغيم عند عبد الحليل مرتاض من البعد التراثي إلى البعد الحدائثي

تثيرُ مسألة التّنغيم في التراث العربي إشكالية بين الدارسين العرب و المستشرقين المحدثين. حيث يرى قسم منهم أنّ القدامى لم يتناولوا الظاهرة بالدرس و التحليل، و منهم تمام حسان الذي يرى " أنّ العربية الفصحى لم تعرف هذه الدراسة في قديمها و أنّ القدماء لم يُسجّلوا لنا شيئاً عن هذه الظاهرة " ³⁸ و يذهب محمد الأنطاكي مذهبه عندما يقول: " إنّ قواعد التّنغيم في العربية قديماً مجهولة تماماً لأنّ النحاة لم يشيروا إلى شيء من ذلك في كتبهم " ³⁹

و يقول برجستراسر: " إنّنا نعجبُ كلّ العجب من أنّ النحويين و المقرئين القدماء لم يذكروا النغمة ولا الضغط أصلاً غير أنّ أهل الأداء و التجويد خاصة رمزوا إلى ما يُشبه النغمة... فلا نصّ نستندُ عليه في إجابة مسألة: كيف كان حال العربية الفصحى في هذا الشأن؟ " ⁴⁰

وعليه نلاحظ إنصافاً لجهود القدماء فيما يخص مسألة التنغيم من لدن العبقري عبد الجليل مرتاض الذي أصّل للمصطلح بذكره لجذوره التراثية دون أن يُغفل الأبعاد الحدائثية للتنغيم في ظلّ ما تعرفه الصوتيات الحديثة فالعالم أرجعَ فهمَ التحليل الإعرابي لحيلة التنغيم منطلقاً ممّا قرّره النحاة القدماء يقول: " و التحليل الإعرابي نفسه قد لا تفهم أسرارها ولا تحلّ ألغازه إلاّ بحيلة صوتية هي التنغيم الموسيقيّ Intonation . لقد قرّر النحاة مثلاً أنّ (عمّة) في قول الفرزدق: كم عمّة لك يا جريز و خالّة فدعاء قد حلبت عليّ عشاري .

يجوز في إعرابها وجهان بل ثلاثة على أساس أنّ (كم) إما خبرية أو استفهامية وهذا الافتراض صحيح ولكنّ العامل الأساسيّ بين كونها خبرية أو استفهامية إنّما هو التنغيم و طريقة إلقاء الشطر أو البيت كلّهُ " ⁴¹

ويؤكد العلامة أنّ التراكيب اللغوية التي يستعينُ فيها الإعراب أو العنصر النحوي بالعنصر الصوتي أكثر من أن تُحصى . بل نظرية الخليل و بعدها نظرية قطرب قائمتان على هذا الاعتبار لأنّ العربية التي ورثناها عربية صوتية مجردة من صناعة هذه الحركات التي لم تعتمدها قبل منتصف القرن الأول الهجري . ⁴²

و يُوردُ لنا الباحث العالم الرواية التي أوجبت على أبي الأسود وضع هذا الذي سمي نحواً " أنّ ابنته قعدت معه في يوم قانظ شديد الحر فأرادت التعجب من شدّة الحر فقالت: ما أشدّ الحر . فقال أبوها: القَيْظ و هو ما نحن فيه يا بنية جواباً عن كلامها لأنّه استفهام ، فتحيرت و ظهر لها خطؤها فعلم أبو الأسود أنها أرادت التعجب فقال لها: قولي يا بنية: ما أشدّ الحرّ ! " ⁴³

وهنا يضعنا العلامة في الإطار الصحيح و البعد الحدائثي المعاصر للتنغيم . فالعالم يرى أنّ الإشكال التواصلي الذي حدث بين المتكلّمة و المستقبل لكلامها إشكالا صوتياً ترنمياً باعتبار (ما) ذات وظائف متعددة. ⁴⁴

و هذا ما استقرّ عليه علم الأصوات المعاصر إذ أنّ نغمات الكلام دائما في تغيّر من أداء إلى آخر و من موقف إلى موقف و من حالة نفسية لأخرى.⁴⁵ فالتنغيم هو " جملة من العادات الأدائية المناسبة للمواقف المختلفة من تعجب و استفهام و سخرية و تحذير .."⁴⁶ استنادا لكلّ ما تقدّم ، أقول إنّ العالم عبد الجليل مرتاض باحث لسانيّ معاصر أخضع الدرس الصوتي إلى معايير علم الأصوات الحديثة في تناوله للقضايا الصوتية كان دائما يعود للتراث العربي الأصيل و الصوتيات المعاصرة . فيُشيدُ بالدراسات التراثية متدخّلا بين الفينة و الأخرى إمّا معللا أو شارحا أو ناقدا في بعض الأحيان مقدّمًا تفسيرات علمية رصينة تنمّ عن عمق فهمه و اتّساع معرفته العلمية مانحا إيّاها . أي الدراسات الصوتية التراثية . أبعادا حدائية محاولا تبسيطها و تقريبها من القارئ بطريقة تعليمية ناجحة .

الهوامش والإحالات :

- 1 . الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ، عبد الجليل مرتاض ، دار هومه ، الجزائر ، ط 2 ، 2009 م ، ص 1 من المقدمة .
- 2 . علم اللغة التطبيقي و تعليم العربية ، عبده الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، دط ، 1995 م ص 1 .
- * . يُعدّ صنيعُ أبي الأسود الدئلي (ت 69 هـ) نقط الإعراب على الرغم من كونه عملا نحويا في أساسه لإحكام ضبط آيات القرآن الكريم من اللحن و الانحراف يُعدّ عملا صوتيا كذلك فهو يعتمد على الأساس النطقي في توزيع الحركات .
- 3 . الدراسات الصوتية عند العلماء العرب و الدرس الصوتي الحديث ، حسام الهنساوي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ط 1 2005 م ، ص 21 .
- 4 . ينظر على سبيل المثال : علم الأصوات بين القدماء و المحدثين ، علي حسن مزيان ، دار شموع الثقافة للطباعة و النشر و التوزيع ، ليبيا ، ط 1 ، 2003 م ، ص 13 .
- 5 . الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ، ص 54 .
- 6 . التيسير ، أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ، خزانة التراث العربي ، 2009 م ، ص ج من المقدمة وينظر : الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ، ص 54 .

7. الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ، ص 54 .
8. نفسه: ص 55 .
9. سورة لقمان الآية 23 .
10. الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ، ص 55 .
11. نفسه: ص 55 .
12. نفسه : ص 55 .
13. مظاهر الظاهرة النحوية : ص 39 .
14. كتاب سيوييه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق و شرح : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل بيروت ، ط 1 ، دت ، ص 4 / 431 و ما بعدها .
15. اللغة و التواصل. اقترابات لسانية للتواصلين الشفهي و الكتابي. عبد الجليل مرتاض ، دار هومه الجزائر ، دط ، 2000 م ص 155 .
16. ينظر : Initiation a la linguistique, Christianbaylon, Paule Fabre, Edition Fernand ، Nathan, 1975, P 84 و ينظر : اللغة و التواصل ، ص 155. 156 .
17. Initiation a la linguistique, P 84 و ينظر : اللغة و التواصل ، ص 156 .
18. Initiation a la linguistique, P 85 و ينظر : اللغة و التواصل ، ص 156 .
19. ينظر على سبيل المثال : الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس ، و مبادئ اللسانيات لأحمد محمد قدور ودراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر ، و علم الأصوات اللغوية لعصام نور الدين .
20. أئمة النحاة في التاريخ ، محمد محمود غالي ، دار الشروق ، ط 1 ، 1396 هـ ، 1976 م ، ص 38 ،

39

*. الفونيم : مصطلح تشكيلي حديث يطلق على أصغر وحدة صوتية لها وظيفة. ينظر : علم الأصوات بارتيل مالبرج ، دراسة وتعريب : عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، المنيرة ، مصر ، دط ، دت ص 229 و ينظر : المصطلح الصوتي في الدراسات العربية ، عبد العزيز الصبغ ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1421 هـ ، 2000 م ، ص 224 .

*. الألفون : هو عنصر من عناصر الفونيم تغييره لا يغير المعنى . و يمكن للألفون أن يكون عنصرا اختياريا كتعدد صور الجيم والقاف و الضاد من بيئة إلى أخرى . و يمكن أن يكون عنصرا إجباريا تحده مواضع معينة في السياق فلا يجوز أن يحلّ عنصر محلّ عنصر آخر فمثلا : الموضع الذي يرد فيه أوفون

النون بصورة فيما غنة كما في (من يعمل) لا يجوز أن يحل فيه ألوفون فيه صورة النون الغارية أو الشفهية. ينظر: مبادئ اللسانيات أحمد محمد قدور ، دار الفكر ، دمشق ، ط 3 ، 1429هـ. 2008 م ص 151.149 .

21. اللغة العربية معناها و مبنائها ، تمام حسان ، دار الثقافة ، المغرب ، دط ، 1994 م ، ص 57

22. نفسه : ص 51.50 .

23. نفسه : ص 51 .

24. الكتاب 4 / 431 .

* الحروف الستة هي : النون الخفيفة و الهمزة التي بين بين ، و الألف التي تمال إمالة شديدة ، و الشين التي كالجيم ، و الصاد التي تكون كالزاي ، و ألف التفخيم يعنى بلغة أهل الحجاز في قولهم : الصلاة و الزكاة والحياة . الكتاب 4 / 432 .

* الحروف الثمانية هي : الكاف التي بين الجيم و الكاف ، و الجيم التي كالكاف ، و الجيم التي

كالشين

و الضاد الضعيفة ، و الصاد التي كالسين ، و الطاء التي كالتاء ، و الظاء التي كالثاء ، و الباء التي

كالفاء . الكتاب 4 / 432 .

25. اللغة و التواصل : ص 94 .

26. كتاب جمهرة اللغة ، أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ، حققه و قدم له : رمزي منير بعلبكي ،

دار العلم للملايين

بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1987 م ، 1 / 42 .

27. اللغة و التواصل : ص 156 .

28. نفسه : ص 96.95 .

29. نفسه : ص 157 .

30. نفسه : ص 159 .

31. دراسة الصوت اللغوي ، أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1418هـ ، 1997 م ،

دط ، ص 180 .

32. نفسه : ص 179 .

33. نفسه : ص 179 .

34. ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة و اللغويين العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، المهدي بوروبة رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراه ، تلمسان ، 1423هـ ، 2002 م ، ص 270.271 .
- *. هناك من العلماء المعاصرين من يُنكر على العرب معرفتهم بالمقطع معللا ذلك بأنه مفهوم غربي . ينظر : التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث ، الطيب البكوش ، المطبعة العربية ، تونس ، ط 3 ، 1992 م ، ص 77 .
35. الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ، ص 59 .
36. ينظر : علم الأصوات لبارتيل مالبرج ، ص 164 و دراسة الصوت اللغوي ، ص 301 و الصوتيات العربية . دراسة تطبيقية على أصوات اللغة العربية . عبد الغفار حامد هلال ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ط 1 ، 1430هـ ، 2009 م .
37. الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية ، ص 59 .
38. مناهج البحث في اللغة ، تمام حسان ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب ، دط 1407هـ ، 1986 م ص 197.198 .
39. دراسات في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ، دار الشرق العربي ، بيروت ، ط 4 ، 1389 هـ ، 1969 م ص 197 .
40. التطور النحوي للغة العربية ، برجستراسر ، أخرجه و علق عليه : رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط 3 1417هـ ، 1997 م .
41. في رحاب اللغة العربية ، عبد الجليل مرتاض ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دط ، 2004 م ص 114 نقلا عن : ظاهرة الإعراب في النحو العربي ، أحمد سليمان ياقوت ، د . م . ج ، الجزائر ، دط 1983 م ، ص 48 .
42. في رحاب اللغة العربية : ص 114 .
43. طبقات النحويين و اللغويين ، الزبيدي ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، 1973 م ص 21 و ينظر : في رحاب اللغة العربية : ص 114 .
44. في رحاب اللغة العربية : ص 114 .
45. فن الكلام ، كمال بشر ، دار غريب للطباعة و النشر ، القاهرة ، دط ، 2003 م ، ص 262 .
46. علم الأصوات لبارتيل مالبرج ، ص 209 .